مدنية المصريين الأقدمين

تقتطف الصفحات التالية من كتاب في « تاريخ مصر القديم والحديث [1] » لحضرة الكاتبة الفاضلة السيدة هند كريمة سعادة اسكندر عمون بك المحامي الشهير. وقد بحثت حضرتها بحثاً دقيقاً في مدنية مصر ، في أزمنتها الأولى ، فتكلمت عن الديانة والشرائع والعلوم والآداب والصنائع والكتابة كلاماً كثير الفائدة ولكننا اقتصرنا على نقل ما ورد فيهِ عن ديانة المصريين وشرائعهم . قالت :

سبق قدماء المصريين شعوبَ العالم قاطبةً في مضمار التمدُّن والترقي ، وأدركوا من العلوم والمعارف والآداب مالم تبلغ اليهِ أُمةٌ في تلك الأعصر الخوالي ، حتى انه ليصحُّ ان تُعدَّ المدَنيــةُ المصرية أماً لمدَنيات شعوبٍ كثيرة أخذت عنها واقتدت بها . وقد خلّف لنا المصريون من الآثار المجيدة ما ينطق بما كانوا عليهِ من التقدُّم الأدبي والمادي والصناعي ؛ ولا يزال علماء العاديات يكتشفون في أيامنا هذهِ أدلةً على أزدهار المدَنية المصرية القديمــة . وفي ما يلي شيء مما كانت عليهِ حالةُ مصر الدينيــة والأدبية والمادية :

الديانة المصرية — كان قدماء المصريين من أشدّ الأمم تمسكاً بالدّين ؛ يدلُّ على ذلك المعابد والهياكل الكثيرة التي لا يزالُ معظمها قائماً حتى يومنا . وأصلُ دينهم مجهول ، ولعلهم أتوا بهِ من آسيا عندما هاجروا منها الى مصر . وكانوا في بداية أمرهم موحدين يؤمنون بالهٍ واحدٍ أزليّ مبدع الأرض والسماء ، تعجز العقول عن إدراك جوهرهِ . ثم أخذوا

(١) يطبع اليوم في مطبعة المعارف بمصر

يعبدون ذلك الالهَ في مظاهرهِ المتعدّدة ؛ فرمزوا الى كل صفة من صفاتهِ بتمثال أو حيوانٍ أو نباتٍ أو غيرِ ذلك ؛ فأدّى بهم هـذا الى الشرْكِ والوثنيّة ؛ وقسموا الآلهة الى ثلاث طوائف : آلهة الموتى ، والآلهة الشمسية ، وآلهة العناصر . ومن أعظم آلهـة الموتى « أوزيريس » إلهُ الخير ورمزُهُ النيل ، و « وإيزيس » إلاهة الخصب والحياة ورمزُها التربةُ السوداء ، و « أنوبيس » حافظ الموتى ورمزُهُ ابن آوى . ومن أعظم الآلهة الشمسية « رع » الالهُ الاكبر ورمزهُ الشمس ، و « تم » إلاهة الغروب ورمزها العجل منيفس . أما آلهـة العناصر فأعظمها « نو » إلهُ المـاء ورمزُهُ المحيط ، « وتيفون » إلهُ الشر والفاقة ورمزُهُ الصحراء . وقد تختلف اسماء هذهِ الآلهة باختلاف الاعصر والأماكن التي عُبدت فيها . وكان قدماء المصريين يعتقدون أن آلهتهم تتزاوج ، وتتألم ، وتموت ، وترعى حقوق الجوار ، وتأكل وتشرب ، فكانوا يقرّبون لهـا القرابين والضحايا من الحيوان والحبوب والأثمار . وكانوا يعتقدون أيضاً أن مقام الإلهِ بالنسبة الى سائر الالهة هو مقام البلد المعبود فيهِ بالنسبة الى سائر البلدان ؛ فعندما سيطرت طيبة مثلاً على وادي النيل ، جعلت إلهها أمون سيداً لجميع الآلهة . ولما دالت دولتهـا ، أصبح أمون في المرتبة الثانية بين الآلهة . ومن أشهر الرموز التي أُلّهت وعبدت ابن آوى رمز أنوبيس ، والعجل « أبيس » والجُعَل وكلاهما رمز « فتاح » وغيرها من الحيوانات كالقرد والهرّ والتمساح وفرس الماء والبازي والجعَل أي الجعران . وكانوا يعبدون العجل مدة ٢٥ سنة فاذا لم يمت بعد هذهِ المدة أخذوهُ في مهرجان عظيم

وأغرقوهُ في النيل ، ثم أخرجوهُ وحنَّطوهُ ودفنوهُ في مدفن العجول بقرب سقارة ولبسوا عليهِ شعائر الحداد الى أن ينتقوا لهم عجلاً آخر يعبدونهُ

وكانوا يحزنون حزناً شديداً عند هبوط منسوب النيل ويقدمون لهُ القرابين استرضاء . وفي إبّان فيضانهِ كانوا يطرحون فيهِ فتاة عذراء يسمونها « عروس النيل » وقد بقيت هذهِ العادة متّبعة حتى نسخها عمرو بن العاص لدُن فتح مصر . وعيد وفاء النيل من المواسم التي يحتفل بها حتى اليوم في البلاد

ولما دخل مصر اليونانيون ثم الرومانيون أخذ كل فريق عن الآخر بعض معبوداتهِ ؛ وصار المصريون يؤمنون بوحي أپولّون ومينرڤا وديانا وجوپيتر (المشتري) ومارس . ثم ظهرت النصرانية وانتشرت في العالم فاعتنقها فريق من المصريين . وظلت تنتشر في البلاد حتى أصبحت دينها الرسمي ، واضمحلت الوثنية في مصر بنهي طيودوسيوس عنها . وفي سنة ٦٤١ فتح عمرو بن العاص مصر فدخلها معهُ الاسلام

وقد اعتقد قدماء المصريين بالخلود والثواب والعقاب . وكان الإلهُ الديان اوزيريس ، وكانت مملكتهُ اولاً في بطائح الدلتا . فلما ضاقت برعاياهُ نقلهم منها الى السماء ، وسمّى مملكتهُ الجديدة « حقول الفول » إشارة الى خصبها . وكان قومهُ هناك متمتعين بالسعادة التامة والملذات على اختلاف أنواعها ، يطوفون مع الإله « الشمس » في زورقهِ ولا ينالهم أذى . ولم يكن يتمكن من الوصول الى مملكة الاموات هذهِ الاَّ من حنّطهُ قومهُ وأقاموا له بعض الطقوس الدينية . فمن تمَّ لهُ ذلك بُعث من

قبرهِ وسافر الى حقول الفول ، فان كان عاقلاً شجاعاً تغلب على ما يلاقيهِ من المصاعب ، وبلغ سالماً مملكة الاموات حيث يمثل بحضرة الديّان أوزيريس وأعضاء مجلسهِ الاثنين والاربعين . فيسمع المجلس اعترافهُ ، ثم يزن الإلهُ « توت » قلبهُ بميزان الحق ، فان كان صالحاً أجازوا لهُ الاقامة معهم والا حكموا عليهِ بالنفي المؤبّد والتعذيب الأليم . وكان الماثل بحضرة الديان ينفي عن نفسهِ اولاً ارتكاب المحرّمات ، فيقول : «لم أُعذّب الارملة ، ولم أخدع أحداً ، ولم اكذب قط ، ولم أعبث بالحق ، ولم أعرف الخيانة ولا الكسل ولا التعجرف ، ولم أُدنس الاشياء المقدسة ، ولم أسعَ الى ضرر العبد لدى مولاهُ ، ولم أُجوّع أحداً ، ولم أُبكِ أحداً ، ولم افتك بأحد غدراً أو ظلماً ، ولم أحمل أحداً على ارتكاب جريمة القتل ، ولم أحمّل العامل فوق طاقتهِ ، ولم أغتصب اللبن من فم الرضيع ، ولم أشهد زوراً ، ولم أسرق خبز المعابد ، ولم أُحرز مالاً حراماً الخ »

ثم يعدّد بعد ذلك الحسنات التي أتاها فيقول : «لقد عشت بالعدل ، وتغذيت بالحق ، ونشرتُ الافراح في كل صوب ، وأطعمتُ الجياع ، وسقيتُ العطاش ، وكسوتُ العراة ، ومددتُ للغرق يد النجاة »

شرائع المصريين وآدابهم — من أمعن النظر في الذنوب والآثام التي تتنصل منها الموتى وفي الصالحات التي تدّعيها يوم المعاد ، أدرك ما كان عليهِ المصريون من الاخلاق الراقية والمناقب الحميدة . وقد عثر الباحثون في الآثار المصرية على كتابات عن شرائع المصريين وآدابهم نقتطف منها ما يلي :

كان يُعاقَب بالقتل كلُّ من يحلف يميناً كاذبة أو يحنث بيمينهِ ؛ ومن يرى رجلاً يعتدي عليهِ معتدٍ ولا يغيثهُ وهو قادرٌ على ذلك ؛ فان لم يقدر ولم يرفع أمر المعتدي الى أولياء الأمر عوقب بالجلد ومنع عنهُ الطعام ثلاثة أيام . ويُعاقب بالقتل أيضاً كل من يرفع الى قاضٍ وثيقةً كاذبة ؛ ومن يقتل عمداً سواء كان المقتول عبداً أو حرّاً ؛ وكذلك من يقتل حيواناً مقدساً

وكان يعاقَب بقطع اللسان كل من يُفشي أسرار الحكومة للاعداء ؛ ومن لم يكن لهُ عملٌ او حرفة يحترفها لتحصيل رزقهِ ؛

ومن شرائعهم ايضاً ان ناكر الدَّين يُصدَّق بيمينهِ اذا لم يكن عند المدَّعي سندٌ يؤيد دعواهُ ؛ وان للدائن حقاً على ممتلكات المدين لا على شخصهِ ، فلا يجوز للدائن ان يسجن المدين او يمسَّهُ بأذى لانهُ تابع لوطنهِ يخدمهُ في الحرب والسلم

ولم يكن يجوز لاحدٍ ان يحترف حرفةً غير حرفة أبيهِ فكانوا بذلك يتوارثون الصنائع والحرف

وكانت المرأة المصرية حرة كنسائنا اليوم ، نصيبها من الارث نصيب الرجل ، وقد أباح لها شرعهم ان تتصرف بارثها بعد زواجها كيف شاءت ، ولقبوها وهي مزوجة « بسيدة البيت »

هند عمون